شعر الاغتراب

شعر الاغتراب غرض متميز في قاموس الأدب العربي، أتى فيه الشعراء بالمعجب المطرب، وعبروا عن عواطف أضناها مفارقة الأهل والأحباب، والبعد عن الديار والأوطان.

وقد أملت هذا اللون من الشعر على مدار تاريخ الأدب العربي عوامل كثيرة، من أهمها النجعة في طلب المعاش، والخروج مع الجيوش الغازية والنفي والتشريد.

وقد عرف هذا الموضوع عند أدباء العربية بشعر الحنين إلى الأوطان، وللجاحظ رسالة فيه معروفة، نشرت ضمن ما نشر من رسائله.

ووجد منذ أن درج الشعر على مهاد الجزيرة، لأن الشاعر العربي مطبوع على الرحلة والتنقل من مكان إلى آخر، كالنحلة التي تتنقل من غصن إلى غصن، ومن زهرة إلى أخرى للبحث عن الرحيق الذي يتحول إلى شهد فيه غذاء وشفاء.

ويجد القارئ نماذج جيدة لشعراء كثر في كتاب المنازل والديار لأسامة ابن منقذ.

وفي العصر الحديث تزامن شعر الاغتراب مع ما منيت به البلاد العربية من استعمار، كان سبباً في اغتراب عددٍ من الشعراء، ونفي آخرين إلى أماكن نائية.

ومن الصنف الأول شعراء المهجر الأمريكي الشمالي والجنوبي، خرجوا من بلادهم مع قوافل النازحين للبحث عن حرية الحياة والعيش التي كبلها المستعمر، وتحولوا في مهاجرهم إلى بلابل مغردة تشدوا بروائع الأشعار المعبرة، وكان للحنين إلى الوطن وذكرياته نصيب ملحوظ في أشعارهم.

يقول المغترب اللبناني يوسف بري من قصيدة:

إليك الشعرَ أبْعَثُهُ كِتَابَا
فهاتِ مع البريد لِيَ الجَوَابا
وعنْ دَثْرَيْتَ لا تَسأل فإني
على رَغْمي أطَلْتُ بها الغِيابا!
غريبُ الدارِ لا يَرضَى سواها
ويَهْواها وإنْ كَانَتْ خَرَابا!
هنالك خيمةُ التِّينات عندي
تُعادِلُ كُلَّ ناطِحةِ سَحاباً
سألتُكَ كيف أنت وكيفَ أهلي
وأطلالٌ طَويتُ بها الشبابا؟
وسَهْلُ الخَانِ كيف السهلُ أمسى
وهل طَابَتْ أزاهِرُه وطابَا؟

ومن الصنف الآخر سيلانيات البارودي، وهي القصائد التي حبرها في سيلان في أثناء نفيه إليها مع مجموعة من صحبه بعد فشل

الثورة العرابية في عام 1882م، وقد قضى البارودي في منفاه سبعة عشر عاماً تزيد قليلاً، وكانت السلطات الإنجليزية هي التي اختارت له هذا المكان ليعيش فيه بقية عمره. وأمضى في كولومبو العاصمة سبع سنوات، ثم انتقل إلى كَنْدي حيث مكث فيها عشر سنوات، تعلم خلالها اللغة الإنجليزية، ودرس العربية والثقافة الإسلامية. ويحتوي ديوانه على قدر كبير من القصائد التي قالها في المنفى، وأودع فيها شكواه من ألم الغربة، والبعد عن الوطن، وما آل إليه مصيره، ولكن القارئ لا يحس في هذه الشكوى ضعفاً ولا تخاذلاً ولا استسلاما، وإنما يحس بتلك النفس القوية الصابرة التي طالما خاضت المعارك في أكثر من جبهة. وأبلت في معظمها البلاء الحسن.

وقد ودع وطنه بقصيدة نونيةٍ مؤثرة، منها هذه الأبيات من قصيدة الفراق:

محا البينُ ما أبقتْ عيونُ المها مني
فشِبْتُ ولم أقضِ اللُّبَانةَ من سِنِّي
عناءٌ، ويأسٌ، واشتياقٌ، وغربةٌ
ألاَ، شَدَّ ما ألقاهُ في الدهرِ من غَبْنِ!
فإنْ أكُ فارقتُ الديارَ فلي بها
فؤادٌ أضلتْهُ عيونُ المها مني
بعثتُ به يومَ النوى إثرَ لحظةٍ
فأوقعه المقدارُ في شرَكِ الحُسْنِ
فهل من فتىً في الدهرِ يجمعُ بينا؟
فليس كلانا عن أخيه بمستغْنِ
ولما وقفنا للوداعِ، وأسبلتْ
مدامعُنا فوق الترائبِ كالمزْنِ
أهَبْتُ بصبري أنْ يعودَ، فعزَّني
وناديتُ حِلمي أن يثوبَ، فلم يُغْنِ
ولم تمضِ إلا خطرةٌ ثم أقلعتْ
بنا عن شطوطِ الحيِّ أجنحةُ السُّفْنِ
فكم مُهجةٍ من زفرة الوَجْدِ في لظىً
وكم مقلةٍ من غزرةِ الدمعِ في دَجْنِ
وما كنت جربتُ النوى قبل هذه
فلما دهتني كدت أقضي من الحزْنِ
ولكنني راجعت حِلْمي، وردَّني
إلى الحزم رأيٌ لا يحومُ على أفْنِ
ولولا بُنَيَّاتٌ وشِيبٌ عواطلٌ
لما قرعَتْ نَفسِي على فائتِ سِنِّي
فيا قلبُ صبْراً إن جَزِعتَ؛ فربما
جَرَت سُنُحاً طيرُ الحوادث باليُمْنِ
فقد تورِقُ الأغصانُ بعد ذبولها
ويبدو ضياءُ البدرِ في ظُلْمةِ الوَهْنِ
والقصيدة طويلة لا يتسع المجال لإيرادها، وهي في ديوانه.

وله قصيدة نونية أخرى قالها في سرنديب (سيلان) يتشوق إلى وطنه، منها:

أعائدٌ بِك ـ يا ريحانةُ ـ الزمَنُ
فيلتقي الجفنُ بعد البَيْنِ والوسنُ

أشتاقُ رجعةَ أيامي لكاظمةٍ
وما بِيَ الدارُ لولا الأهلُ والسكنُ
فهل ترد الياليِ بعض ما سلبت ؟
أم هل تعودُ إلى أوطانِها الظُّعُنُ
أهنئُ للحبِّ نفسي بعد عزتها
وأيُّ ذِي عِزَّةٍ للحُبِّ لا يَهِنُ